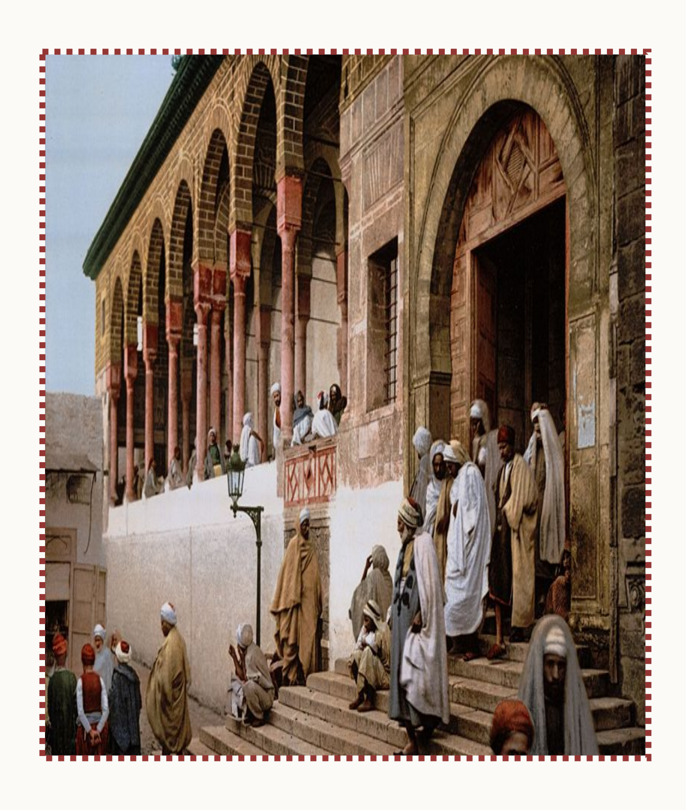


الوجود الحضاري العربي الإسلامي في غرب إفريقيا

بوترعة علي

أستاذ التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
الجامعة الإفريقية (أدرار)– الجمهورية الجزائرية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بوترعة علي، الوجود الحضاري العربي الإسلامي في غرب إفريقيا.- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع عشر؛ مارس ٢٠١٣. ص ٦٣ – ٧٠.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخَّصْ

يتناول المقال موضوع الوجود الحضاري العربي الإسلامي في غرب إفريقيا، إذ أن العلاقات الموجودة بين شمال القارة الأفريقية وغربها والتواصل الحضاري بينهما أدى إلى ظهور الدين الإسلامي أوساط قبائل غرب أفريقيا وخاصةً بلاد "الهوسا"، ومع هذا المد الحضاري ارتقت اللغة العربية لغة القرآن وأصبحت لها مكانة هامة رغم تعدد اللهجات الأفريقية منذ القرن الأول الهجري. وقد تزامن المد الإسلامي مع الحركة التجارية فكان التجار المسلمون أول الدعاة، كما لعب سلاطين من المجتمع الهوسي والونقريين في القرن الرابع عشر الميلادي إلى بداية القرن التاسع عشر الميلادي دورًا هامًا في نشر التعاليم الإسلامية، حيث ظهرت الخلافة الإسلامية (الصكتية) واستمرت حوالي قرن من الزمن (١٨٠٤ - ١٩٠٣)، وشملت شمال نيجيريا وجزء من جنوبها وجمهوريتي النيجر والكاميرون الحاليتين، وقد أدى ذلك إلى حماية مسلمي المنطقة من التبشير المسيحي البريطاني الكنسي. وارتقت اللغة العربية حيث أصبحت لغة التأليف عند الأفارقة غرب أفريقيا (السودان الغربي)، وأصبحت الكلمات العربية دخيلة على اللهجات الأفريقية، وهكذا أصبح المجتمع السواحلي مجتمع متأثر بالعادات وبالمبادئ الإسلامية.

ونشأ الأدب السواحلي المكتوب بلغة هذه الشعوب، والذي استمد جذوره من الأدب العربي الإسلامي وكان مكتوبًا باللغة العربية، ثم ينشأ على أثره الأدب المعبر عنه باللغات المحلية. ونشأة الأدب الهوسي المكتوب كان نتاجًا للثورة العلمية التي صاحبت حركة الجهاد في بلاد الهوسا وقيام الخلافة الصكتية، وازدهار الحركة العلمية في بلاد الهوسا كان من روادها الشيخ "محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني" في أواخر القرن الخامس عشر، إذ كان لبلاد الهوسا الأثر الكبير في إتباعه، وفي بداية القرن السادس عشر ظهرت مدارس صغيرة للعلماء المحليين ازدهرت وتطورت وأصبحت مراكز علمية جذبت إليها طلاب من أفريقيا، وكان هؤلاء المهاجرون هم الشرارة التي اندلعت منها حركة الفكر والأدب، وتطورت إلى أن انتهت بالثورة الفكرية التي صاحبت فكرة الجهاد، وكانت مدينة تومبكتو إحدى وأهم مراكز الإشعاع العلمي والحضاري.

مُقَدِّمَة

لا شك أن للموقع الجغرافي لهذا الإقليم دورًا هامًا في هذا الأمر، وقد ترتب على ذلك انتشار الثقافة العربية الإسلامية على امتداد هذه السواحل والتي غطت جل مناحي الحياة، وانعكست في اللغة السواحيلية، نجد أن إقليم غرب إفريقيا - وبالتحديد بلاد برنو وبلاد هوسا سابقًا- لم يشهد اتصالاً مباشرًا مع العرب بنفس ذلك القدر الذي شهده شرق أفريقيا، كما لم تصل الدعوة الإسلامية إلى بلاد هوسا بصورة ملموسة إلا في منتصف القرن الخامس عشر. ولكن رغم ذلك تميز التاريخ الإسلامي لهذا الإقليم بتطور مبكر لمراكز إشعاع فكري قوامها نخبة من العلماء المحليين

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

برعوا في التأليف باللغة العربية، من أمثال دان مسني (ابن العارف) ودان مرينا (ابن الصباغ) وجبريل بن عمر وعلماء الخلافة الصكتية وغيرها. وقد خلف لنا هؤلاء العلماء المئات من الأعمال القيمة باللغة العربية، وفي اللغة العربية نفسها. أما العلماء والأدباء في المجتمع السواحيلي فقد حصروا أنفسهم في التأليف باللغة السواحيلية وحدها، وإذا كانت هناك أعمال باللغة العربية فهي قليلة نسبيا، ومعظمها من تأليف علماء من ذوي الأصول العربية أو الفارسية.

الوجود العربي الإسلامي في إقليم غرب إفريقيا

لم يتحدث التاريخ عن صلات مباشرة بين الجزيرة العربية وإقليم غرب إفريقيا، وبالتحديد بلاد هوسا، وحتى بلاد المغرب الذي انطلق منه المد الإسلامي إلى داخل القارة ثم إلى بلاد هوسا فتفصل بينهما الصحراء الكبرى. لذلك نجد أنه، ليس للجغرافيا هنا دور يذكر في ربط بلاد العرب بإقليم غرب إفريقيا، وإن كان قد لعب فيما بعد دورًا ايجابيًا هامًا في حماية هذه المنطقة من انحسار الثقافة العربية الإسلامية كالذي شهده إقليم شرق إفريقيا. كما هو معلوم فقد تواصلت الفتوحات الإسلامية من مصر إلى بلاد المغرب (ثم الأندلس)، وتسلم البربر راية الإسلام من العرب وعبروا بها الصحراء الكبرى ثم تسلمها منهم المجاهدون من السكان المحليين، لاسيما التكرور والفولاني والماندينقو، فقامت عدة ممالك وإمبراطوريات إسلامية على امتداد الإقليم الذي عُرف لدى قدامى المؤرخين بـ بلاد السودان الغربي: مملكة غانا "المسلمة" (١٠٧٦ - ١٠٨٥م)، وإمبراطورية مالي (حوالي ١١٠٠ - ١٧٥٤م)، وإمبراطورية صنغاي (١٤٧٣-١٥٩١م). وكذلك وصل الإسلام إلى بلاد كانم، وبرنو، عن طريق فزان منذ القرن الأول الهجري. أما فيما يتصل ببلاد هوسا (شمال نيجيريا وجنوب النيجر الحاليتين) فقد نشأ المجتمع الهوسي مجوسيًا، واستمر هكذا على المستوى العام حتى القرن الرابع عشر الميلادي، إلا أنه من المؤكد أن هذه البلاد قد عرفت نوعًا من التوحيد وقدرًا من الإسلام الذي كان يُمارس مخلوطًا بالوثنية منذ القرن الثالث عشر الميلادي.(١)

رغم أن أولى شذرات الإسلام جاءت إلى بلاد هوسا من مملكة كانم – برنو المجاورة لها من الناحية الشرقية، إلا أن المد الإسلامي ذا الأثر الفعال قد وصلها من ناحية الغرب، وفي البدء كان مصاحبًا للحركة التجارية، فأول مجموعة من الدعاة المسلمين ورد ذكرها في كتاب (تاريخ أرباب كنو) هي مجموعة الونقرين Wangarawa، وهم قوم من الماندیکا كانوا يجمعون بين التجارة والدعوة. وقد وصل هؤلاء إلى كنو في عهد الملك الصالح ياجي بن ثاميا (١٣٤٩ - ١٣٥٨م) قادمين من ملي Malle (نسبة لمملكة مالي القديمة)، وتمكنوا بمساعدة ذلك الملك من نشر إسلام أكثر نقاء وعلى مستوى أوسع في كنو وما جاورها. وفي هذا السياق يتحدث أحمد كاني عن إحدى مجموعات الونقرين التي هاجرت إلى بلاد هوسا في طريقها للحج، وكان فيها حوالي ٣٦٣٠ شخصًا ما بين عالم وقارئ.(٢) ويمكننا تصور الأثر الكبير الذي تركته هذه المجموعة في بلاد هوسا من ظهور الخلاوي القرانية والحوزات العلمية التي أوجدت أرضية خصبة للإنتاج الفكري والثقافي فيما بعد.

وفي القرن التالي، وبالتحديد في عهد الملك يعقوب بن عبد الله برجا (١٤٥٢ - ١٤٦٣م) وصلت أربع مجموعات من الوافدين إلى كنو، جاءت كلها بغرض الدعوة وبعضها مع التجارة أيضًا. وأهم هذه المجموعات جماعة الفولاني التي قدمت من مالي ضمن هجرة كبيرة بدأت تحط رحالها عند الأطراف الغربية من بلاد هوسا، على رأسها الشيخ موسى جكلو، الجد الثالث عشر للشيخ عثمان بن فودي. هذا بينما واصلت الهجرة الرئيسة إلى كنو وفيها عدد كبير من العلماء. وقد أجمعت المصادر أن هؤلاء الفولانيين احضروا معهم كتبًا في علم التوحيد والمذهب المالكي واللغة العربية، وبعدها بعدة سنوات بدأت الأفواج العربية التي أشارت إليها رواية (تاريخ أرباب كنو) بـ (الأشراف)، بدأت تتدفق إلى تلك المناطق. ومن بين هؤلاء العالم الجليل المغربي الشهير محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني (ت ١٥٠٤م) الذي وصل إلى كنو في عهد الملك محمد رمفا بن يعقوب (١٤٦٣- ١٤٩٩م) على رأس نخبة من العلماء بعد توقف قصير في بلاط مملكة كاتسينا.

لقد تزامن وصول الشيخ المغيلي إلى بلاد هوسا مع تولي ثلاثة من الملوك في ثلاث من أهم ممالك الهوسا، وهم محمد رمفا في كنو، ومحمد كرو (وبعده إبراهيم ماجي) في كاتسينا ومحمد رابو في ززو (زاريا). ويذكر أحمد كاني أن ثلاثتهم اعتنى اعتناءً فائقًا بإحياء الشعائر الدينية ومحاربة الوثنية وإضفاء الثوب الإسلامي على النظم السياسية. ويضيف أن الشيخ المغيلي قد احضر معه كتبًا في الفقه، كما قام بإعداد كتاب خاص لملك كنو بعنوان "تاج الدين فيما يجب على الملوك" اعتبر بمثابة مسودة "دستور إسلامي"، اتخذ الملك أساسًا لإعادة تنظيم دواوين دولته.(٣)

أخذ الإسلام ينداح بخطى وئيدة من ممالك الوسط إلى الأطراف، وقد لعب العلماء القادمون من خارج بلاد هوسا ومجموعة العلماء المحليين الذين تتلمذوا عليهم دورًا مقدرًا في ذلك. ولكن مع ذلك ظلت كثير من الممارسات الوثنية سائدة أيضًا وسط عامة الناس وفي بلاط بعض السلاطين الذين ابقوا عادة الاستعانة بالسحرة والمنجمين سبيلاً للتمكن في سلطانهم. ويبدو أن النشاط الدعوي خلال القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر قد تمكن من توسيع رقعة الإسلام، ولكن لم يفلح في إيقاف الممارسات الوثنية التي كانت تمارس جنبًا إلى جنب مع الإسلام حتى كادت تؤخذ وكأنها من الإسلام نفسه. وفي منتصف القرن الثامن عشر عندما شعر العلماء بخطورة هذا الأمر على الإسلام انبرى بعضهم - من أمثال الشيخ جبريل بن عمر الطارقي-(٤) للتصدي لهذه الظاهرة وأخذوا يوجهون النقد للسلاطين في تحد سافر لأعراف ذلك العصر. وفي بداية القرن التاسع عشر ذهب الشيخ عثمان بن فودي وشقيقه عبد الله (تلميذا الشيخ جبريل) يعاونهما ابن الأول (محمد

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بلو) ذهبوا إلى أبعد من ذلك وأعلنوا الجهاد ضد ممالك الهوسا بهدف "تطهير الدين وتجد يده". وبعد أربعة أعوام من المعارك تمكنوا من الإطاحة بجميع النظم القائمة آنذاك، وإقامة خلافة إسلامية قائمة على شرع الله، أي الخلافة الصكتية.

استمرت الخلافة الصكتية لقرن كامل من الزمان (١٨٠٤-١٩٠٣م) وشملت كل شمال نيجيريا وأجزاء من جنوبها، إضافة إلى رقعة واسعة من جمهوريتي النيجر والكمرون الحاليتين. وقد اجتهد علماء هذه الخلافة في ترسيخ قيم الدين الحنيف وتربية الأجيال عليه مع تركيز خاص على نشر العلم والمعرفة، لذلك عندما سقطت هذه الخلافة في أيدي الاستعمار البريطاني لم تجد الإرساليات الكنسية موطئ قدم لها وسط المسلمين فيها. وقد حرص الآباء طيلة فترة الاستعمار على المحافظة على تعاليم الشيخ عثمان وحماية أبنائهم من التأثر بسلبيات الثقافة الغربية. وبعد نيل نيجيريا الاستقلال سنة ١٩٦٠ عمل السير أحمد وبيلو، حفيد الشيخ عثمان وأول رئيس وزراء شمال نيجيريا عمل على ربط شمال نيجيريا بالعالم الإسلامي عن طريق ابتعاث الطلاب لتلقي العلم في البلاد العربية الإسلامية، وبالأخص السودان ومصر. ولهذا الرعيل الأول من هؤلاء الطلاب الفضل في إضفاء الصبغة الإسلامية في كل الأمور المتعلقة بالنشاط الفكري، وبالتعليم، والقضاء، والإدارة، بصورة عامة في شمال نيجيريا إلى يومنا هذا.

المؤثرات العربية الإسلامية في اللغة العربية والثقافة السواحلية

لا يتم الاتصال بين الشعوب إلا بالتواصل، ولا يتم التواصل إلا عبر اللغة، لذلك نجد أن ضرورة الاتصال والتواصل تقتضي تعلم أحد الشعبين لغة الأخر، وعند الضرورة القصوى تنشأ لغة هجين أساسها اللغة الأقوى (أما من حيث عدد المتحدثين بها أو من حيث نفوذهم السياسي والاقتصادي)، تتغذى بكمية كبيرة من ألفاظ وعبارات اللغة أو اللغات الأضعف، ولكن في كل الأحوال نجد أن اللغة أهم عنصر في عمليتي الاتصال والتواصل. وتعتبر اللغة السواحلية أكثر اللغات تأثرًا باللغة العربية، حتى ذهب البعض إلى الاعتقاد بأنها نشأت من اللغة العربية، بينما ظن آخرون أنها مزيج من اللغتين العربية والبانتوية. ففي الواقع كل مَن له قليل معرفة في مجال اللغات يعلم جيدا أن اللغة السواحيلية لم تنشأ من اللغة العربية، بينما يؤكد بعض علماء اللغة استحالة نشوء لغات مزيج.(٥)

على أية حال؛ هناك الآن إدراك واسع أن اللغة السواحلية لغة بانتوية تحتوي على قدر كبير من المؤثرات العربية، تكثر هذه المؤثرات لدى سكان الساحل وتقل تدريجيًا كلما توغلنا إلى داخل القارة. ولكن الشيء الذي لم يتضح لدى كثير من الباحثين هو: كيف تم هذا التأثير وكيف دخلت هذه الألفاظ إلى صلب اللغة البانتوية؟ فكثير منهم يركن إلى فكرة الاقتراض الطبيعي، بمعنى أن متحدثي اللغة البانتوية قاموا باقتراض الألفاظ العربية، ذلك لأن مثل هذا الاقتراض المكثف الذي يكاد يجعل من اللغة المتلقية لغة هجينا لا يتم إلا في حالة الثنائية اللغوية، كما في حالة اللغة العربية واللغات المحلية في السودان، حيث نجد أن جميع متحدثي اللغات المحلية تقريبا يتحدثون اللغة العربية أيضًا كلغة ثانية. ففي تقديرنا أن ما حدث في زنجبار وغيرها من جزر وسواحل شرق إفريقيا هو أن العرب هم الذين بدءوا التحدث باللغة البانتوية (اونقوجا) البسيطة، وكانوا يكملون ما يعوزهم من ألفاظها أو ما تفتقد إليه قاموسها بألفاظ من لغتهم الأم، أي العربية. فأغلب المؤثرات العربية من أصوات وكلمات وعبارات وحكم وأمثال أدخلها العرب أنفسهم في اللغة البانتوية من خلال سعيهم للتواصل مع السكان المحليين، ثم تلقاها منهم السكان المحليون بهيئتها الجديدة هذه. وإذا كان هناك اقتراض في الاتجاه المعاكس فلابد أنه قد حدث في وقت متأخر.

يصعب تقدير نسبة الألفاظ العربية في اللغة السواحيلية، لأن هذا التأثير – كما أسلفنا – متفاوت بين الساحل والداخل، إلا أنه قد شمل جل أوجه الحياة، لاسيما الممارسات الإسلامية والتجارة والإدارة وبعض العادات والتقاليد. وهناك العديد من الدراسات المستفيضة والمتعمقة حول هذا الموضوع مما يغنينا عن الإسهاب في الحديث عنه في هذا المقال.

أما فيما يتصل بالثقافة السواحلية، فقد أشار سيد حامد حريز إلى أن ملامح الثقافة العربية في المجتمع السواحلي تختلف من مكان لآخر داخل المنطقة السواحلية في قوتها وكثافتها،(٦) وبالطبع بحسب موقع المكان قربًا أو بعدًا من الساحل والجزر، كما أسلفنا، وفي بعض الأماكن تقتصر هذه الثقافة فقط على اللغة والملبس، بينما تنعكس في أماكن أخرى في اللغة والعادات والمعتقدات والأزياء والمسكن والفنون...الخ. ونجد في مثل هذه الأماكن أن كثيرًا من عناصر الثقافة والتراث مستمدة من الحياة العربية في عصورها الأولى، لاسيما العصر العباسي (قصص ألف ليلة وليلة)، وكذلك إن عادات الولادة والختان والتربية والزواج والمآتم كلها ذات صبغة عربية إسلامية.

المؤثرات العربية الإسلامية في اللغة والثقافة الهوسية

لقد رأينا في حالة شرق إفريقيا أن الاتصال بين اللغة العربية واللغة البانتوية التي تطورت عنها اللغة السواحلية كان اتصالاً مباشرًا جرى بين متحدثي اللغتين، بل أننا نرى أن العرب هم الذين تحدثوا اللغة البانتوية أولاً وأكملوا حاجاتهم بألفاظ ومفاهيم من العربية. على العكس من ذلك فإن الاتصال بين اللغتين الهوسية والعربية كان في أغلب حالاته اتصالاً غير مباشر، أي عن طريق التقاليد الأدبية. وفي بعض الحالات عبر لغات وسيطة، أهمها البربرية والكانورية، صحيح أن المصادر التاريخية قد أشارت إلى وجود العرب في مدينتي كنو وكاتسينا في شمال نيجيريا منذ القرن الخامس عشر الميلادي في شكل أفراد ومجموعات، وأن العرب

دورية كان التاريخية .. دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الشوا قد استقروا حول بحيرة تشاد (في نيجيريا وتشاد والكاميرون) منذ أمد بعيد، إلا أن هؤلاء العرب لم يكونوا في يوم من الأيام مؤثرين على الأوضاع اللغوية الاجتماعية في أماكن استقرارهم، بل كانوا – بحكم أنهم أقلية – يتعلمون اللغات السائدة في تلك الأماكن ويتواصلون بها.

في حقيقة الأمر: إن تاريخ اللغة العربية في بلاد هوسا مرتبط ارتباطًا وثيقًا بانتشار الإسلام في تلك البقاع، وإن الهوسا أنفسهم ينظرون إلى اللغة العربية والدين الإسلامي بوصفهما وجهين لعملة واحدة، فأربعة قرون من الاتصال بين اللغتين عن طريق الإسلام والأدب والتجارة وبعض مناحي الحياة الأخرى تكفي للسماح للغة الهوسا باستيعاب كمية من الألفاظ والعبارات العربية من كلا المصدرين الشفهي والتحريري. تضمنت قائمة الباحث اللغوي الأمريكي جوزيف غرينبيرج (١٩٤٧)[٧] حوالي ٤٦٠ كلمة عربية مقترضة في الهوسا، بينما وصلت هذه الكلمات في قائمة اللغوي الايطالي سيرغيو بالدي (١٩٨٣) إلى حوالي ١٢٥٠ كلمة.[٨] وهذا العدد من الكلمات بمشتقاتها يقارب الـ ١٠% من جملة الكلمات الهوسية المكونة لقاموس أبراهام (١٩٦٢).[٩]

من الصعوبة أن نتحدث عن مؤثرات ثقافية عربية في المجتمع الهوسي كتلك التي رأيناها بالنسبة للمجتمع السواحلي، وذلك لعدم وجود مجتمعات عربية مؤثرة في بلاد هوسا، فما يمكن الإشارة إليه بالمؤثرات الثقافية هنا هي في الحقيقة مؤثرات إسلامية في المقام الأول لا تخرج عن صيغ عقد الزواج والاحتفال بالمناسبات الدينية الكبيرة كالمولد النبوي الشريف والأعياد الكبرى. وفيما عدا ذلك فالمجتمع الهوسي متمسك بعاداته وممارساته التقليدية في جميع أوجه الحياة الاجتماعية، كالمظهر والملبس والمعمار وعادات الولادة والزواج والمآتم وطبيعة العلاقة بين أفراد الأسرة وأفراد المجتمع.

نشأة وتطور الأدب المكتوب باللغتين السواحلية والهوسا

– نشأة الأدب السواحلي المكتوب:

إن من أهم الآثار الإسلامية على الشعوب التي حظيت بنعمة الإسلام في آسيا وإفريقيا، تطور أو نشأة أدب مكتوب بلغات هذه الشعوب، والذي يستمد جذوره من الأدب العربي الإسلامي. ونذكر على سبيل المثال في آسيا الأدب الفارسي الحديث والأدب التركي والأدب الأردي، وفي إفريقيا الأدب السواحلي والأدب الهوسي والأدب الفولاني. ولكن ما حدث في آسيا كان عبارة عن تطور، لأن لتلك الشعوب أدبًا مكتوبًا بأبجديات غير العربية كان موجودًا قبل تأثرهم بالثقافة العربية الإسلامية، بينما نجد أن الشعوب الأفريقية المذكورة أعلاه لم تعرف أدبًا مكتوبًا قبل دخول الإسلام، وأن آدابها المكتوبة نشأت منذ البداية متفرعة من الأدب العربي الإسلامي ومكتوبة بالحرف العربي. لقد لاحظ الباحثون المهتمون بآداب الشعوب الإسلامية المسلمة في إفريقيا أن النشاط الفكري وسط هذه الشعوب يبدأ دائمًا باللغة العربية نفسها، ثم ينشأ على أثره الأدب المعبر عنه باللغات المحلية، لذلك فإن أقدم المخطوطات التي عُثر عليها في سواحل شرق إفريقيا كانت مخطوطتي كلوا وباتي، وكلهما كان مكتوبًا باللغة العربية. كما وجدت عبارات باللغة العربية مكتوبة على شواهد بعض القبور ترجع إلى القرن الثامن الميلادي، ولا يستبعد الباحثون وجود تراث أدبي مكتوب بالخط العربي قبل هذا التاريخ لم يتم اكتشافه بعد. على أية حال، لا شك في، أن كل هذه الآثار ترجع إلى العرب أنفسهم، وليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن للسكان المحليين يدًا فيها ولكن الأسئلة الأهم في هذا السياق: متى ظهر التراث الأدبي السواحلي المكتوب بالحرف العربي، وكيف نشأ، ومن هم رواده ؟ أهم العرب السواحليون أم السكان المحليون؟

كما هو الحال بالنسبة للشعوب الإسلامية في غرب إفريقيا، والهوسا على وجه الخصوص – كما سنرى لاحقًا – إن بداية التأليف باللغة السواحلية كان بالنظم، وأن أقدم النصوص التي تم العثور عليها في هذا الفن أربع قصائد مطولة ترجع إلى القرن الثامن عشر، وكلها قصائد تعليمية[١٠] Didactic . ولعل أهمها وأقدمها كانت قصيدة الهمزية للشيخ عيد روس بن عثمان بن علي، وهي عبارة عن ترجمة لقصيدة باللغة العربية لشرف الدين البوصيري، كما وجدت بعض المقتطفات من قصائد المولد مترجمة من القصائد العربية، ولكن لا يستبعد كنابرت (الباحث الانجليزي المتخصص في الأدب السواحلي) وجود قصائد الفت أصلاً باللغة السواحلية. ويحتوي الشعر السواحلي أيضًا على قصائد مطولة ذات الطابع الملحمي. ولكن بما أن الملاحم غير معروفة في الشعر العربي فيرجح كنابرت أن السواحليين قد استلهموا هذا الفن من نماذج من الشعر الفارسي أو الأردي.

نشأ الشعر السواحلي إسلاميًا وظل هكذا إلى يومنا هذا، وحتى ذلك الشعر الذي نظم بعد الاستعمار، رغم أن موضوعاته قد لا تكون إسلامية، إلا أنه إسلامي الروح والقالب. وقد استخدم الشعر السواحلي عددًا من الأوزان الشعرية العربية، وأهمها – حسب كنابرت[١١] Kisarambe ;utenzi ; shairi ; ukawafi . وقد لوحظ أن الوزنين الأولين يستخدمان لنظم الشعر ذي الأغراض الدنيوية، بينما نجد أن معظم ما ألف على الوزنين الأخيرين كان للأغراض الدينية. ويبدو أن وزن الـ ukawafi كان أقدم هذه الأوزان، إذ عليه نظمت القصيدة الهمزية. ولعل أهم ما ألف على وزن الـ kisarambe كانت قصيدة الانكشاف للشيخ عبد الله بن علي بن ناصر، وقوام هذا الوزن مقاطع من أربعة شطرات، تحمل الشطرات الثلاثة الأولى قافية مستقلة، وتمثل قافية الشطر الرابع القافية الرئيسية للقصيدة، كما في المثال التالي من قصيدة الانكشاف: أضحوا طعامًا للديدان Wasiriye kuwa kula kwa dudi التي تمتص أجسادهم na kuwatafuna zao na mtwa na t ungu huwafisidi jisadi النمل يحطمهم ويقضي عليهم majoka na p ili wawataliye الثعابين والأفاعي حولهم كما واضح، لقد نظمت هذه الأبيات في

دورية إلكترونية. مُحكَّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وصف الموت وعذاب القبر وأهوال يوم القيامة، وهي نفس الصور التي تعكسها مشاهير قصائد الشيخ عبد الله بن فودي بلغة الهوسا، كقصيدة bulaliya (السوط)، و jan mari (القيد الأحمر)، و bakin mari (القيد الأسود)، والوزن أعلاه يعتبر من الأوزان المتواترة في القصائد الهوسية.

وقد لاحظ كنابرت تشابهًا شديدًا بين الشعر السواحلي والشعر الهوسي، مما حداه إلى القول بوجود اتصال ما بين الثقافتين السواحلية والهوسية، غير أن التاريخ لم يدون لنا في أي وقت من الأوقات أي نوع من الاتصال بين بلاد هوسا (الخلافة الصكتية) وإقليم شرق إفريقيا. فالتشابه بين قصيدة الانكشاف مثلاً والقصائد الهوسية الشبيهة لها (كالتي أشرت إليها أعلاه) راجع إلى حقيقة أن العلماء في كلا الإقليمين يهدفون إلى أمر واحد (وهو الوعظ)، ويتبعون أسلوبًا واحدًا (الترغيب والترهيب) ويعتمدون على مصادر واحدة (القران والحديث وبعض الكتب الصفراء). وقبل أن نختم هذا الجزء المتصل بنشأة الأدب السواحلي المكتوب، نشير إلى أن للنثر أيضًا موقعًا معتبرًا في هذا الأدب. فمن قديم ما دون نثرًا من الأدب السواحلي المكتوب بالحرف العربي هناك ما كان غير إسلامي، كفواتير شحن وتفريغ البضائع، والخطابات الشخصية، والمراسلات الدبلوماسية، وما شابه ذلك. وهناك أيضًا ما كان يتصل بالأدب الشفاهي النابع من التراث المحلي، كالأحاجي والأمثال وقصص الأرواح الخفية – إلخ. أما الأدب العربي الإسلامي، فيتمثل في المقام الأول السيرة النبوية وقصص الأنبياء، وأدبيات العصر العباسي، وقصص ألف ليلة وليلة.(١٢)

– **نشأة الأدب الهوسي المكتوب:**

إذا كان الأدب السواحلي قد نشأ بالتدرج، فإن الأدب الهوسي المكتوب– على عكس ذلك – كان نتاجًا للثورة العلمية التي صاحبت حركة الجهاد في بلاد هوسا وقيام الخلافة الصكتية. لم يدون لنا التاريخ حتى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر أعمالاً ذات قيمة أدبية بلغة الهوسا، فكل ما وجد في العصور السالفة لم يتعد عبارات مدح كان ينظمها المادحون للملوك تصور مواقف بطولية بعينها، لم تكن لترقى إلى مستوى الشعر الشفاهي المألوف. ومؤخرًا تم تصور العثور على قصيدة في مدح باوا جنغرزو، ملك غوبر، ترجع إلى العقد الثالث من القرن الثامن عشر، ولكن لا يمكننا الاعتماد على مثل هذه الأعمال التي لا نعرف حتى مؤلفها للتحدث عن الأدب الهوسي المكتوب في تلك الفترة. توفر لقادة حركة الجهاد في بلاد هوسا قدرًا كبيرًا من الإلمام بالأدب العربي الإسلامي، وألفوا كثيرًا من الأعمال في العلوم الإسلامية (التوحيد والفقه والعبادات والجهاد والمعاملات والمواعظ..الخ) باللغة العربية نثرًا ونظمًا بغية هداية المجتمع وتهيئته للتغيير الذي يرمون إليه، كما سنرى لاحقا. ولكن جاء وقت اتضح لهؤلاء العلماء أن ما كانوا يكتبونه باللغة العربية وحدها لا يفي غرضهم بالصورة المطلوبة، ذلك لأن المستهدفين بهذا العمل (وهم الهوسا الفلاحون والفولاني الرعاة) أميون لا معرفة لهم باللغة العربية.

لذلك كان لزامًا على قادة الحركة البحث عن وسيلة عملية أخرى لإيصال المعلومة إلى جماعتهم، وبالطبع لا يدخل في ذلك تعليمهم العربية أولاً، وإلا كم من الزمن يستغرق ذلك ؟ فمن هنا جاءت فكرة اللجوء إلى اللغات المحلية السائدة، وأهمها الهوسا والفولانية. ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت مرحلة جديدة للحركة الفكرية الجهادية، وهي مرحلة النقل والترجمة، أي نقل العلوم ذات الصلة المباشرة بعامة المجتمع والتي سبق أن كتبوها باللغة العربية نثرًا، نقلها وترجمتها أو إعادة صياغتها باللغات المحلية في شكل منظومات مقفاة. وقد كانت هذه العملية أشبه بعملية النقل والترجمة (من الثقافات الإغريقية والرومانية والفارسية والهندية) إلى العربية في العصر العباسي الأول.

ولكن إلى جانب النقل والترجمة كان الشيوخ يقومون أيضًا بتأليف المنظومات باللغات المحلية مباشرة، وخاصةً المواعظ وقد كان الشيخ عبد الله بن فودي أبرز من نظم بلغة الهوسا، إلى جانب أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودي التي كانت تقوم بترجمة قصائد والدها من اللغة الفولانية إلى الهوسا، كما قامت بتخميس البعض من هذه القصائد.(١٣) نشأت القصيدة الهوسية مشابهة للقصيدة العربية، حاملة في ثناياها جميع عناصر القصيدة العربية من حيث البنية وأساليب الإبداع، بما في ذلك الأوزان الشعرية والمحسنات البديعية. وقد وجد المستشرف الانجليزي مارفن هسكت أن القصيدة الهوسية الإسلامية قد استخدمت عشرة من الأوزان الشعرية العربية، ولا تختلف عن القصيدة العربية إلا في موضوعاتها، والتي تنحصر هنا في المسائل الدينية والجهادية. وتتبع القصيدة الهوسية في بنيتها الخارجية نهج المنظومات الدينية العربية السائدة في ذلك العصر، حيث تبدأ بالاستهلال المعهود أي بالحمد والشكر للخالق المنان، ثم الصلاة على النبي المختار وعلى اله وأصحابه والتابعين الأخيار، ثم يرمز لتاريخ تأليفها بكلمة أو عبارة يمثل كل حرف منها رقمًا معينًا، وهو ما يُعرف بحساب الجمل (مثلاً عام شركد: عام ١٢٢٤هـ).

التراث الفكري الإسلامي باللغة العربية في إقليم وغرب إفريقيا

كما ذكرنا في المقدمة أن النشاط الفكري الإسلامي باللغة العربية يمثل المحور الأساسي لهذا المقال، فقد رأينا فيما تقدم مختلف الجوانب الفكرية والثقافية المعبر عنها باللغات المحلية (السواحلية والهوسا على وجه الخصوص) والتي تطورت عن الاتصال العربي الإسلامي بإقليمي شرق وغرب إفريقيا، سواء أكان ذلك الاتصال مباشرًا (شرق إفريقيا) أو غير مباشر (غرب إفريقيا). والآن يحق للقارئ أن يسأل: أين موقع التراث الفكري الإسلامي المعبر عنه باللغة العربية في الخارطة الأدبية والفكرية التي تم عرضها أعلاه ؟ كيف نشأ هذا التراث (إن وجد) زمن هم رواده ؟

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية

إذا استرجعنا ما ذكرناه حول قدم الصلات بين الجزيرة العربية وسواحل شرق إفريقيا وكثافته الوجود العربي في حقب التاريخ المختلفة في هذا الإقليم والوصول المبكر للإسلام فيه مقارنة بإقليم غرب إفريقيا، نتوقع وجود قدر من التراث الفكري الإسلامي باللغة العربية في الإقليم الأول يتناسب مع حجم ودرجة هذه المعطيات. ولكم ما نجده في الواقع صورة معكوسة تمامًا عما كنا نتوقعه، أي شحًا ملحوظًا في الإنتاج الفكري الإسلامي باللغة العربية في إقليم شرق إفريقيا مع ضعف قيمته العلمية، وغزارته في إقليم غرب إفريقيا مع رفعة مستواه العلمي، فلنبدأ بتقديم عرض موجز لنشأة وتطور الحركة العلمية والتأليف باللغة العربية في غرب إفريقيا حتى نتمكن من استيعاب محدودية هذا النشاط في إقليم شرق إفريقيا.

ازدهار الحركة العلمية في بلاد هوسا

كان للعلماء الذين رافقوا الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني – المذكور أنفا – أو اتبعوا أثره إلى بلاد هوسا خلال العقد الأخير من القرن الخامس عشر الفضل في نشأة الحركة العلمية في تلك البلاد، فمع بداية القرن السادس عشر بدأت دوائر صغيرة للعلماء المحليين في النمو والازدهار حتى أضحت مراكز جذب للمهاجرين من الأقاليم الإسلامية الأخرى، وبالأخص مملكة كانم برنو وشمال إفريقيا ومصر. فهؤلاء العلماء المهاجرون لبلاد هوسا أو الذين كانوا على اتصال بها يمثلون في الحقيقة الجذوة التي اندلعت منها حركة الفكر والأدب باللغة العربية في تلك البلاد، والتي استمرت في النمو والتطور إلى أن انتهت بـ "الثورة الفكرية" التي صاحبت حركة الجهاد وقيام الخلافة الصكتية في العقد الأول من القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من أن الفترة من بداية القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر لم تنجب من العلماء المحليين المرموقين سوى القليل، إلا أن أعمال هؤلاء العلماء – بمقاييس ذلك العصر – كانت على درجة من الجودة تستحق الوقوف عندها. فمن هؤلاء العالم الكنوي عبد الله ثقة (سكا) الذي ألف منظومة بعنوان "العطية للمعطي" بين فيها الأوجه المختلفة للعبادات. وتعتبر هذه المنظومة بداية للتأليف المحلي بالنظم ونموذجًا انتشر على شاكلته هذا الفن في كل المناطق.[١٤] ومن هؤلاء أيضًا العالم الكشناوي ابن الصباغ المعروف بـ"دان مرينا" (ت ١٦٥٥) الذي قام لأول مرة بشرح وتحليل قصيدة العشرينية للفزازي في كتاب له بعنوان "الوسائل المتقبلة". ومن أعماله التي اشتهر بها كتابه "مزجرة الصبيان" الذي بين فيه فروع العلم والمعرفة التي تناولها وتذوقها علماء عصره في بلاده، ومنها الشريعة والتوحيد والحديث والنحو والفلك وفنون التلاوة وعلم العروض والقوافي والفلسفة. ومن مشاهير كاتسينا أيضًا الشيخ ابن العارف (دان مسني)، ويذكر الشيخ محمد بلو بن فودي لابن العارف تواليف تدل على وفرة علمه، منها "النفحة العنبرية في شرح العشرينية"، و"بزوغ الشمسية في شرح تدل العشرينية"، و"ازدهار الربا في أخبار يوربا".[١٥]

ومن علماء تلك البلاد في ذلك العصر الشيخ هارون الزكزكي، شيخ الشيوخ الفلاتي، كما يشير إليه محمد بلو. وله قصائد وتواليف منها نظمه على رواة البخاري، أي رواية الفروع عن الأصول. ومنهم أيضًا الشيخ على جب، صاحب الشرح على الكبرى والشرح على لامية الأفعال، هؤلاء هم مشاهير علماء ذلك العصر، ولا شك أن هناك كثيرًا غيرهم ممن هم دون مستواهم. إن الخلل الاجتماعي والروحي الذي أصاب مجتمع بلاد هوسا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر قاد إلى ظهور نوع جديد من الكتابات تنتقد المجتمع لشدة تراخيه في الممارسات الإسلامية مع خلطها بالممارسات المجوسية، وتنتقد الحكام علنا لجورهم وخروجهم عن جادة الطريق، وتدعو إلى النهوض لتطهير الدين وإصلاح المجتمع. وأشهر رواد هذا النوع من الأدب الشيخ جبريل بن عمر الطارقي بقصيدته "شفاء الغليل". ثم تسلمت الراية منه مجموعة العلماء الذين قادوا حركة الجهاد، وهم ابنا محمد فودي –عثمان وعبد الله – وأبناؤهما وأصحابهما وتلامذتهما. وقد كان التفقه في الدين سمة متوارثة في أسرة فودي، إلا أن عقد هؤلاء المذكورين النية للقيام بأمر إصلاح المجتمع مع كل ما يترتب على ذلك من مجابهة مَن يسمونهم بـ"علماء السوء" المتحالفين مع الملوك – كل هذا كان مدعاة لهم للتسلح بمزيد من العلم والتعمق فيه. وقد كان هذا بالفعل ديدنهم، إذ يذكر الشيخ عبد الله بن فودي في كتابه "إيداع النسوخ من أخذت من الشيوخ" خمسة عشر من مشاهير العلماء الذين أخذ عنهم شتى فنون العلم والمعرفة داخل بلاد هوسا وخارجها، رغم ذلك يختم بقوله "الشيوخ الذين أخذت عنهم لا أحصيهم الآن ولكن هؤلاء مشاهيرهم".

ونظرة في مكان آخر من هذا الكتاب تكفي لتصور غزارة العلم الذي كانوا يسعون للحصول عليه ورفعة درجته: "ومن الشيوخ الذين أخذت العلم عنهم أمير المؤمنين شقيقي عثمان بن محمد... وقد تركني أبي في يده بعد قراءة القران وأنا ابن ثلاث عشرة سنة فقرات عليه العشرينيات والوتريات والشعراء الستة وأخذت منه علم التوحيد من الكتب السنوسية وشروحها وغيرها وقل كتاب وصل إلى بلادنا وعرفته ولم انقله. وأخذت عنه الأجرومية والملحة والقطر ونحوها وشروحها. وأخذت منه علم التصوف الذي للتخلق والذي للتحقق ما استغنيت بـ هان شاء الله عن غيره. وأخذت منه كتب الفقه ما يعرف به فرض العين مثل الاخضرية والعشماوية ورسالة بن أبي زيد وغيرهما. وأخذت عنه تفسير القرآن من أول الفاتحة إلى آخر القران مرارًا لا اعرف قدرها، وأخذت منه علم الحديث دراية العراقي ورواية البخاري ما مرني على غيرها. وأخذت منه علم الحساب القريب منه واليسير وحصل لي بحمد الله التبصر في الدين من فيضان نوره ومن تواليفه المفيدة، العربية والعجمية، فما ألف كتابا من أول تواليفه إلى الآن إلا كنت أول من نقله غالبًا".[١٦]

لقد أخذ هؤلاء القادة ذلك الكم الغزير من العلم واستوعبوه ووظفوه للتصدي لقضايا مجتمعهم الملحة، فكان إنتاجهم منه بقدر غزارة ما اكتسبوه أو أكثر، وكل ذلك رغم انشغالهم بحركة الجهاد وتأسيس الدولة الإسلامية الجديدة. فخلف لنا أفراد الأسرة الفودية (الشيخ عثمان وعبد الله ومحمد بلو والمنحدرون منهم) وحدهم ما جملته ٧٢٣ عمل[١٧] باللغة العربية فقط، تتراوح من منظومة طويلة إلى مجلد ضخم (غير ما ألفوه باللغات المحلية – هوسا وفلفلدي)، تفاصيلها كما يلي:

- الشيخ عثمان بن فودي: ١٥٤عمل، أضخمها "بيان وجوب الهجرة على العباد".
- الشيخ عبد الله بن فودي: ١١٢عمل، أضخمها "البحر المحيط في النحو" في ٤٠٠٠ بيت على نمط ألفية ابن مالك، وكتاب "صفاء التأويل في معاني التنزيل"، وهو كتاب تفسير للقرآن.
- الشيخ محمد بلو بن فودي: ١٦٢عمل، أضخمها "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور"
- المنحدرون منهم: ٢٩٥ عمل (لم أتمكن من الاطلاع على عدد واف منها).

وقد غطت هذه الأعمال كل فنون العلوم الإسلامية وضروبها تقريبًا، وتناول بعضها موضوعات وقضايا خاصة بمجتمعهم الضيق، كما كتب الشيخ محمد بلو في الطب النبوي والطب الحديث (بمعايير عصره). ولعل أهم ما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق ما كتبه الشيخ عبد الله بن فودي في اللغة العربية، وأعني مؤلفه المذكور "البحر المحيط في النحو "ومؤلفه الآخر" الحصن الرصين في علم التصريف" (١٠٣٦بيت)، وديوانه "تزيين الورقات بما لي من الأبيات" الذي يحوي قصائد من عيون الشعر العربي. يجب ألا يفهم مما تقدم أن التأليف باللغة العربية في فترة الخلافة الصكتية كان محصورًا في الأسرة الفودية. فإذا عدنا إلى لغة الأرقام مرة أخرى نجد أن جملة ما تم العثور عليه من مخطوطات ومطبوعات باللغة العربية منذ فترة الفوديين إلى سنة ١٩٩٥ في المساحة المعروفة سابقًا ببلاد هوسا (من مشارف بون وإلى الحدود الغربية لإمارة صكتو) قد بلغ ١٥٩٤عمل ما بين قصيدة ومجلد ضخم (يدخل في ذلك أعمال الفوديين أيضًا). وهذا العدد يكفي للاستدلال على أن التأليف باللغة العربية أضحى تقليدًا راسخًا في شمال نيجيريا. ولا ننكر أن نظام التعليم المدرسي القائم على النظم الغربية قد أثر سلبًا على حيوية هذا التقليد، إلا أن تمسك مجتمع شمال نيجيريا بالخلاوي والدهاليز التقليدية قد ساعد كثيرًا على استمرارية هذا التقليد واستدامته. فقائمة مؤلفات الشيخ ناصر كبرا الذي توفي في كنو قبل أقل من عشرة أعوام تقف شاهدة على ذلك، إذ ضمت حوالي ١٥٠عمل باللغة العربية.

التأليف باللغة العربية في شرق إفريقيا

لم يشر كنابرت (١٩٧١) – ويعتبر أهم مرجع في الأدب السواحلي – إلى أي عمل باللغة العربية نظمًا كان أو نثرًا يرجع إلى القرون الماضية أنجزه مؤلف سواحلي حتى من ذوي الجذور العربية، دعك من السكان المحليين. وقد أكد سيد حامد حريز إلى أن الشعراء في شرق إفريقيا قد نظموا باللغة العربية في أغراض مختلفة[١٨] ولكن دون الإشارة إلى شاعر بعينه مما قد يوحي بمحدودية هذا الجانب من النشاط وبما أننا بصدد المقارنة مع ما هو حادث في إقليم غرب إفريقيا، كان يهمنا أيضًا معرفة هوية هؤلاء الشعراء، وقد رأينا إن أولى القصائد السواحلية التي تم العثور عليها في إقليم شرق إفريقيا كانت من نظم شعراء ذوي أصول عربية (أو فارسية). أما في النثر باللغة العربية فلم يورد سيد حامد حريز في كتابه الجامه حول المؤثرات العربية في الثقافة السواحلية، لم يورد أي عمل في هذا السياق. وقد أورد عبد الرحمن أحمد عثمان في ثبت المصادر والمراجع لكتابه "المؤثرات الإسلامية والمسيحية على الثقافة السواحلية"[١٩] أربعة كتب وخمس مخطوطات لمؤلفين من داخل المنطقة قيد الدراسة أو ما جاورها. والمؤلفون هم: سعيد بن علي المغيري، والشيخ محي الدين الكلوي، وسالمة بنت سعيد بن سلطان، والشيخ إدريس بن محمد القادري، وبرهان بن مكلا القمري، وعبد الله محمد باكثير الكندي، وعبد الله بن زين الوهط السقاف، بالإضافة إلى راشد البراوي الذي كتب عن الصومال الجديد.

ويلاحظ من خلال هذه الأسماء؛ أن أغلبية هؤلاء المؤلفين ينحدرون من أصول غير محلية، كما يلاحظ غياب الأعمال الفكرية المتعمقة في العلوم الإسلامية كالتوحيد والفقه والتفسير وعلم الكلام أو إعمال في اللغة العربية على شاكلة مؤلفات الشيخ عبد الله بن فودي المذكورة أعلاه. ومن المعروف أن أسرتي النبهاني والمزروعي قد أسهمتا كثيرًا في دفع عجلة الحركة الفكرية في إقليم شرق إفريقيا، وألف بعض أفرادها كثيرًا باللغة السواحلية، وكنا نتوقع أن نقف على إعمال لهم باللغة العربية أيضًا. بالطبع لا يمكن الاعتماد على قائمة عبد الرحمن أحمد عثمان في الحكم على حجم التأليف باللغة العربية في إقليم شرق إفريقيا، وقد أفاد عبد الرحمن بنفسه بأنه لم يتمكن من الوقوف على كثير من المخطوطات، وبالأخص تلك التي في حوزة أسر سلاطين الاباصية ولكن حتى إذا افترضنا أن هناك أعمالاً في هذا السياق ذات أهمية علمية، فلا نعتقد أنها قد بلغت من حيث الكم والنوع ما تم انجازه في الطرف الأخر من القارة، إلا فلماذا لم تحظ بالشهرة والنشر والانتشار ؟ على أن أهم من ذلك كله ملاحظة أن جميع ما أنجز في بلاد هوسا (١٥٩٤عمل) باللغة العربية كان من تأليف علماء محليين أصولهم من داخل المنطقة.

ومن هنا يجئ السؤال المحوري في هذا المقال: **لماذا تطورت الحركة العلمية في بلاد هوسا منذ وقت مبكر واستمرت جذوتها متقدة إلى يومنا هذا وخلفت لنا هذا الأثر الضخم من التراث العربي الإسلامي المعبر عنه باللغة العربية ؟ لماذا لم يحدث شيء كهذا في إقليم شرق إفريقيا رغم الوجود العربي المبكر جدًا في هذا الإقليم؟**

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

موقعها الاستراتيجي في طريق التجارة بين أوربا وجزر الهند الغربية، وبحكم ما كانت تتمتع به من خيرات تجارية، ظلت على مدى التاريخ منطقة صراع وتنافس بين مختلف القوى العظمى، فوقعت تحت سيطرة البرتغاليين لقرنين من الزمان لا احسب أن النشاط الفكري الإسلامي خلالهما قد وجد حظًا يذكر للانطلاق، فكانت هذه الحقبة بمثابة فترة خمول أو ربما "بيات" لهذا النشاط على عكس من ذلك إقليم بلاد هوسا الذي يقع بعيدًا عن الساحل ولم يكن به من الموارد التجارية ما كان يثير اهتمام القوى العظمى خلال القرون الوسطى. لذلك ظلت الحركة الفكرية الإسلامية فيه تنمو في مسارها الطبيعي دونما عرقلة (من الخارج) إلى أن وصلت قمتها مع حركة الجهاد المشار إليها أنفا. فلم تعرف هذه المنطقة استعمارًا إلا في مطلع القرن العشرين، ووقتها قد وصل الوعي الديني لدى عامة الناس درجة يستحيل معها أي نوع من الاختراق. وفي بادئ الأمر قرر مسلمو الخلافة الصكتية مقاومة كل ما يمت للمستعمر "الكافر" بصلة، وبلغ ببعضهم حد التخلي عن ديارهم فرارًا بدينهم.[٢٠] ثم بدءوا تدريجيًا يتقبلون منه العلوم الغربية ولكن دون أن يؤثر ذلك على موروثهم الثقافي الذي ينبني على التراث العربي الإسلامي. لذلك لا غرو أن خلف لما الشيخ ناصر كبرا (المتوفى بكنو قبل أقل من عشرة أعوام – كما أسلفنا) حوالي ١٥٠ عمل باللغة العربية ؟

خاتمة

والخلاصة من كل ما تقدم: أن العلاقة بين سكان الصحراء الكبرى كانت علاقة إسلامية تاريخية، قوية وقديمة، وعلمية وثقافية، وصوفية وأدبية، وفقهية وسياسية، وتتناول جميع الروابط الاجتماعية، أما العلاقة الثقافية فقد حققت بالتعاليم الدينية وتأثير اللغة العربية وازدهارها، وتمسك الملوك بالشريعة الاسلامية وبذلهم قصارى جهدهم لنشر الدين والاهتمام بعلماء الإسلام. كما أسهم التجار المسلمون بدور كبير في عملية التبادل التجاري مع بلاد السودان وحمل هؤلاء التجار السلع ومعها العقيدة الاسلامية ونشروها في بلاد السودان، وأسسوا بها مراكز تجارية، تعتبر أيضًا مراكز حضارية إسلامية.

الهوامش:

(1) **description de l'afrique** – *jean leon* ***L'africain nouvelle*** *edition traduite de l'italien par A.Epaulard.* Adrien – Maisonneuve .Edition ,11 rue sains – sulpice. Paris vi pp .44-48

(٢) أحمد محمد كاني: **الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا**، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧، ص٣٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٧.

(٤) أهم أساتذة الشيخ عثمان بن فودي، انظر ترجمته في: محمد بلو بن فودي: **إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، القاهرة، دار مطابع الشعب، ١٩٦٤. ص ٥٤ – ٥٦.

(٥) إبراهيم طرخان: **دولة مالي الاسلامية: دراسات في التاريخ القومي الإسلامي**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٣، ص ٥٦ – ٦٧.

(٦) سيد حامد حريز: **المؤثرات العربية في الثقافة السواحلية في شرق إفريقيا**. بيروت، دار الجيل، ١٩٨٨، ص١٢.

(٧) أهم أساتذة الشيخ عثمان بن فودي، انظر ترجمته في: محمد بلو بن فودي: **اتفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**، القاهرة، دار مطابع الشعب، ١٩٦٤. ص ٥٤-٥٦.

(8) Sergio Baldi (1988): ***A First Ethnolinguistic Comparison of Arabic Loanwords – common to Hausa and Swahili***, Supplemento n. 57agli Annali Vol 48, Fax .4.

(٩) سيد حامد حريز، مرجع سابق، ص٤٨.

(١٠) سيد حامد حريز، مرجع سابق، ص٩٤.

(١١) سيد حامد حريز، مرجع سابق، ص ٩٤.

(١٢) عبارة عن رسالة دكتوراه، معهد الدراسات الإفريقية الأسيوية، جامعة الخرطوم، سنة ١٩٩٣.

(١٣) عبد الرحمن أحمد عثمان، مرجع سابق، ص٨٧.

(١٤) المرجع السابق، ص ١٥.

(١٥) محمد بلو بن فودي, مرجع سابق, ص ٥٢.

(١٦) عبد الله بن فودي: إيداع النسوخ من أخدت من الشيوخ، زاريا، مكتب نولا، ١٩٥٨. ص٢.

(17) ***Islam et la colonisation en Afrique*** Hammahoullah Homme de foi et Réistant, Maisonneuve et larose 1983, Alioune traoré, pp.66 -78.

(١٨) سيد حامد حريز ، مرجع سابق ، ص ١١٢.

(١٩) عبارة عن رسالة دكتوراه، معهد الدراسات الإفريقية والأسيوية، جامعة الخرطوم، سنة ١٩٩٣.

(٢٠) عبد الرحمن أحمد عثمان، مرجع سابق، ص ٨٧.

ISSN: 2090 – 0449 دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية